المدرسة الخاتونية البرانية

بدمشق - ٢

الخطآن الرابع والخامس

تحقيق أمر « مسجد الخاتونية » الذي عناه ابن كنان ومسجد تربة الخاتون بالجبل » الذي ذكره ابن شداد

بعد أن فرغنا من اثبات أن مسجد الخاتونية البرانية لا موضع له بين زاوية القرنفلي والمدرسة المرشدية . وأنه ليس المدرسة الآتابكية . وحققنا أمر المدرسة الخاتونية البرانية التي أشار العلموي إلى أن صياغ كامل دمشق نقل رخامها إلى مدرسته بباب الجابية ، وقلنا انها كانت تقع بالشرف القبلي جنوبي بردي ولا علاقة لها بجبل الصالحية ، نتقدم الآن لتعريف مسجد الخاتونية الذي نقل الأستاذ أسعد عن ابن كنان « إنه كان فيه درس حديث في الأشهر الثلاثة وأن آخر من درس فيه . القاضي حسن بن العدوى الصالحي » لأن هذا المسجد كما سيتضح هو أيضاً غير هذه المعاهد جميعاً ولا علاقة له بها .

وكذلك سنحقق أمر مسجد تربة الخاتون بالجبل الذي ذكره ابن شداد وابن عبدالهادي وسنثبت أنه ليس المدرسة الآتابكية ولا المدرسة التي أشار إليها العلموي وإنما هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين الأيوبي .

* * *

نجد واجباً علينا ونحن ندرس مؤسسة أنشأتها خاتون أي سيدة في مدينة كدمشق بها كثير من المعاهد التي بنتها الخواتين أي السيدات والتي يسمى كل منها باسم الخاتونية أن نحدد ما يريد ابن كنان عند ذكره « مسجد الخاتونية »

والطريقة المثلى لذلك هي أن نتعقب ابن كنان في جميع تضاعيف كتابه « المروج السندسية » وأن نتأكد تماماً وبدون أدنى شك مرتع وتاريخ « مسجد الخاتونية » الذي ذكره : —

---

(١) ظهر الجزء الاول من هذا البحث في متحف نوفمبر الماضي

أولاً — يقول ابن كنان في ص ٢٨ من كتابه « المروج السندسية بتاريخ الصالحية » مخطوط دار الكتب الملكية بالقاهرة (ومنه نسخة مصورة بالمجمع العلمي العربي بدمشق هي التي اعتمدنا عليها) جامع الطاتونية : « وفيه درس حديث في الأشهر الثلاثة وآخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوى الصالحي »

ثانياً — ويقول في ص ٢٩ عند تعداده مساجد الصالحية. « مسجد في سوق شعيب ... ومسجد في زقاق الأسد في سوق شعيب ومسجد الشركسية . . . ومسجد عند مطهرة الطاتونية وآخر قبليه وآخر في حارة المقدم على الطريق السلطاني مقابل قناة العين .. الخ

ثالثاً — ويقول في ص ٣٠ عند ذكره مآذن الصالحية .

« قال ابن عبد الهادي في تاريخ الصالحية . . ومن مآذنها (أي الصالحية) . . (بالمدرسة) المرشدية واحدة و (بالمدرسة) الأتابكية واحدة . . . و (بالمدرسة) المارداينة واحدة . . وعند الطاتونية واحدة . . . انتهى كلامه أقول (أي ابن كنان يقول) والسليمية (أي جامع محي الدين) واحدة والموجود منها بعد الآلف . . . الطاتونية والمارداينة ... والأتابكية والمرشدية ... أدركتها . . الخ .

رابعاً : ويقول بصحيفة ٧٥ من المخطوط « ... وأما العزيز الآن في الصالحية فمن حد السكة الى الصالحية بها خمس خطب : المظفر ، والسليمية ، والحاجبية ، والطاتون ، والمارداينة .. »

خامساً : ويقول في ص ٩٤ — ٩٥ عند افتخاره بالصالحية وبراعة أهلها في الصناعات والفنون بحيث لا يلحقهم فيها أحد :

« ... وقول الناس في المثل سابق الصالحية لا يلحق . لأن الحرب فيها كذلك ... فأما العلماء فالأجلاء كانت بها والحفاظ والصلحاء والعبّاد والرؤساء واصحاب الشرف . وفي الصناعة ان بجامع الطاتونية مدّة مسجونة عمل رجل دهان من الصالحية فعجز أرباب هذه الحرفة عن أن يعاملوها ... وكذلك بقية الصناعات حتى المصارعين والبهلوانية والحلوانية والخطاطين وأصحاب الأصوات الجميلة حتى لقد سافر أحدهم الى مصر فسمعت صوته جارية فرمت بنفسها من الربع ... ومن قول الناس في المثل : سابق الصالحية لا يلحق لأن الحرب فيها كذلك . اهـ . ويستنتج من ذلك الحقائق التالية :

١ — ان مسجد الطاتونية كان به درس حديث في ثلاثة أشهر من السنة

٢ — انه يقع بالقرب من المدرسة المباركية (المعروفة بالشركسية) ومن حارة المقدم

٣ — انه كانت به مأذنة في عهد ابن عبد الهادي واستمرت الى ما بعد سنة الف هجرية

٤ — انه كان أحد المساجد الجامعة الكبيرة بالصالحية وكانت به خطبة

٥ — انه كانت به سلة مدهونة بديعة الصناعة بحيث يعجز أرباب هذه الحرفة عن أن يصنعوا مثلها .

ونبدأ الآن في دراسة هذه الحقائق لنصل الى التعريف الدقيق بمسجد الخاتونية الذي عناه ابن كنان فنقول :

أولاً : اثبات ان مسجد الخاتونية هذا هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون المعروف بالمسجد الجديد .

١ — يقول النعيمي في باب التربة بالجزء الثاني من كتابه الدارس ص ٤٥٠ — ٤٥١ ما نصه في الفصل الخاص بالتربة الخاتونية :

« هي على نهر يزيد بصالحية دمشق قبلي المدرسة الجهاركسية وهي تربة عصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين زوجت نور الدين ثم صلاح الدين (الأيوبي) وأوقفت المدرسة التي بدمشق الحنفية وقد مرت ترجمتها فيها والخانقاه التي عند جامع تنكز انشأتها سنة سبع وسبعين وخمسماية (٥٧٧ هـ) كما هو مكتوب على الشباك المطل على الطريق .

وقد وسع هذه التربة وجعلها جامعاً يعرف الآن بالجامع الجديد وأقيمت فيه الجمعة الفقير الى الله تعالى سليمان بن حسين العقيري التاجر وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي بن التدمري وذلك في شهور سنة تسع وسبعمائة (٧٠٩) غفر الله تعالى له ولهم آمين .

ثم أنشأ الخواجا أبو بكر بن العيني تربة له ثمانى هذه (التربة) يسلك اليها من بابين أحدهما من الجامع المذكور وتجاههما ايوان بمحراب وأضافه الى الجامع المذكور، ثم أوقف عليها ولده شيخ الاسلام زين الدين عبد الرحمن بن العيني أوقافاً ورتب في الايوان المذكور مدرساً وعشرة من الفقهاء ووقتا في كل ليلة جمعة وشرط في المدرس والفقهاء أن يكونوا حنفية وأوقف كتبه عليها » اه كلام النعيمي .

ويقول العلمي في كتابه مختصر الدارس مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق في فصل التربة الخاتونية صحيفة ١٢٨ بعد أن يلخص ما ذكره النعيمي :

« ... ثم في سنة خمس وسبعين وتسعمائة (٩٧٥ هـ) ألهم الله تعالى عبده الصالح محمد ابن محمد المترجم أن يوسع هذا الجامع فاجتهد في توسيعه من جهة الغرب ووسعه بقدر مرتين بعد أن كان ضيقاً فصار جامعاً واسعاً تصلى فيه الصلوات والعبادات والتلاوات آناء الليل وأطراف النهار وأزال الحائط الغربي وجعل في هذا الذي جدده محراباً ثانياً ورتب اماماً ووقف عليه وقفاً وأنفق عليه من ماله وساعده بعض أهل الخير تقبل الله منه ومن كل من يفعل الخير » اه .

٢ — يقول النعيمي أيضاً بباب المساجد بصحيفة ٥٦٠ ج ٢ .. عن ابن شداد «ومسجد تربة خاتون على نهر يزيد».

فهنا يصرح ابن شداد بأن مسجد تربة الخاتون الذي نقله عنه ابن عبد الهادي بص ١٣٠ هو الواقع على نهر يزيد وهو قطعاً مسجد تربة عصمة الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين المتوفاة سنة ٥٨١ هـ . وقد ظهر لنا بصفة مؤكدة انه كان يعرف باسم «مسجد تربة الخاتون» حتى عهد ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ هـ. ثم وسع وجعل جامعاً كبيراً بخطبة وتقام فيه الجمعة في سنة ٧٠٩ هـ . والسبب في هذه العمارة كما نرى ما حدث فيه من التشعيث والتخريب بسبب ما أوقعه التتار وصاحب سيس من النهب في الصالحية في ٦٩٩هـ.

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٩٩ هـ مجلد ١٤ ص ٨ من كتابه البداية والنهاية «وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرىء عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام وذهب اليه الاعيان فهنئوه بذلك . . . وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الاسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الاشرفية بها (أي بالصالحية لوجود دار حديث أخرى أشرفية بدمشق شرقي القلعة بالعصرونية) واحترق جامع التوبة بالعقيبة الخ». اهـ .

فبعد هذه العمارة التي جدد فيها المسجد ووسع وجعل جامعاً كبيراً بخطبة تقرر فيه الجمعة بدأ الناس يسمونه «الجامع الجديد» بجانب تسميته القديمة «مسجد الخاتون» . لذلك نجد ابن عبد الهادي يسميه الجامع الجديد ويذكره في كتابه بهذا الاسم فيقول في ص ١٥٩ : «فصل في ذكر المساجد المختصة : غالب مساجد الصالحية للحنابلة الا جامع الشيلية والجامع الجديد» الخ . وص ١٥٥ : «المحلة الثانية والعشرون من محلات الصالحية :

حارة الدلامية وحمام المقدم : ..... المسجد السادس بالجامع الجديد» . ولكنه حين ينقل اسمه عن ابن شداد يسميه «مسجد تربة الخاتون» (ص ١٣٠) وقد علمنا فيما سبق أنه بعد هذه العمارة ألحقت تربة العيني وأضيفت إليه وجعل فيها الدرس والمكتبة ثم وسع الجامع بعد ذلك بقدر مرتين في سنة ٩٧٥ هـ . ولما كان ابن عبد الهادي قد ألف كتابه هذا في أواخر القرن التاسع الهجري وتوفي سنة ٩٠٩ أي قبل توسيع الجامع بحجمه الكبير بنحو ٦٦ سنة فقد ثبت لدينا أن هذه التسمية كانت معروفة وذائعة قبل عصر ابن عبد الهادي . هذا أضفنا إلى ذلك أن النعيمي مؤرخ لاحق لابن عبد الهادي توفي سنة ٩٢٧ هـ وعرفنا أنه كان يعلم التسميتين لمسجد وأنه أشار إليه في باب المساجد ثم ترجم له في باب التربة في فصل

تربة عصمة الدين خاتون . وفي اللوحة التذكارية المنقوش عليها اسم البانية وتاريخ انشاء التربة سنة ٥٧٧ هـ لا تزال موجودة في موضعها بالواجهة الشرقية للجامع كما شاهدها النعيمي . فلا يكون هناك إذن أي شك في أن مسجد الخاتونية الذي ذكره ابن كنان وكان به درس الحديث في الأشهر الثلاثة هو المسجد الجديد هذا وهو نفسه الذي يسميه ابن شداد « مسجد تربة الخاتون في كتاب المساجد ص ١٣٠ وموقعه جنوب الجهاركية (المعروفة محلياً باسم الشركسية أو الجركسية) بحارة المقدم والدلامية قرب الطرف الشمالي الزقاق الآخذ من الجسر الأبيض إلى الجهاركية .

ثانياً : يشير ابن كنان في ص ٢٩ عند ذكره مساجد الصالحية إلى مسجد الخاتونية في المنطقة الواقعة بين الجهاركية وحارة المقدم .

وقد ثبت لدينا مما ذكرناه آنفاً أن مسجد الخاتونية هذا هو الجامع الجديد ولا يوجد في هذه المنطقة (بين الجهاركية وحارة المقدم) مسجد آخر يمكن أن تنطبق عليه هذه التسمية سواه علاوة على أن اللوحتين التذكاريتين اللتين تثبت احداهما بناء تربة عصمة الدين خاتون سنة ٥٧٧ هـ وعمارة المسجد سنة ٧٠٩ هـ لا تزالان موجودتين احداهما بالواجهة الشرقية للحرم والثانية على عتب المدخل . ولا ندري لماذا حرص ابن كنان على عدم ذكر اسم الجامع الجديد مع ان المؤرخين الذين سبقوه من أمثال ابن عبد الهادي والنعيمي والعلموي قد عنوا بالاشارة إليه . والظاهر لنا أن هاتين التسميتين قد عاشت كل منهما مع الأخرى ولم يكتب لاحداهما الغلب فظلتا مشهورتين ومعروفتين حتى الوقت الحاضر . ودليلنا على ذلك ان أهل الصالحية يسمون هذا المسجد تارة مسجد الخاتون وأخرى بالمسجد الجديد .

واننا اطلعنا على كشف بيان الأماكن الأثرية في مدينة دمشق المصنفة وقتاً لقرار رقم ١٦٦ ل ر المؤرخ في ٧ تشرين الثاني (أي نوفمبر) سنة ١٩٣٣ فوجدنا به ما يلي :—

« الجوامع ... وجامع الخاتونية (يحي) الشركسية » أي ان دائرة أوقاف دمشق تأخذ حتى عصرنا هذا بالاسم القديم لهذا المسجد مع تسميته الشائعة المتداولة وهي « المسجد الجديد »

ثالثاً : ينقل ابن كنان عن ابن عبد الهادي أن مسجد الخاتونية هذا كانت له مأذنة ويقول ابن كنان أن هذه المأذنة استمرت الى ما بعد سنة الف هجرية .

ويستنتج من ذلك ان المأذنة التي يشير اليها كانت موجودة في أواخر القرن التاسع الهجري أي انها ترجع قطعاً الى عمارة سنة ٧٠٩ هـ لأن ابن عبد الهادي الذي روى هذا توفي سنة ٩٠٩ هـ أي قبل العمارة الكبرى الثانية التي حدثت سنة ٩٧٥ هـ لأن هذا المسجد كما ذكرنا مراراً في ثلاثة أدوار معمارية هامة :

الدور الأول : انشاؤه سنة ٥٧٧ هـ

الدور الثاني : اصلاحه وتوسيعه في سنة ٧٠٩ هـ

الدور الثالث : توسيعه في سنة ٩٧٥ هـ

وقد قلنا ان مسجد الخاتونية هو الجامع الجديد. ولو كان ابن كنان يقصد مسجداً آخر لما ذكر مساجد الخواتين الأخريات التي فيها مآذن بأسمائها المشهورة. وقد ذكر منها صراحة مسجد المارداني وهو الى الجنوب عند الجسر الأبيض والآتابكية والمرعدية بجادة بين المدارس إلى الغرب وليس في هذه المنطقة مساجد خواتين أخريات ذوات مآذن يمكن أن تضاف إلى هذه المساجد سوى مسجد تربة الخاتون العصمية (عصمة الدين خاتون) بالجامع الجديد.

رابعاً : إن هذا المسجد كان في عهد ابن كنان من المساجد الخمسة العظيمة الموجودة في المنطقة المحصورة «من حد السكة إلى الصالحية» والتي بكل منها خطابة. وهذه المساجد الخمس هي

جامع المظفر — أي جامع الحنابلة المعروف بجامع الجبل.

جامع السليمية — المعروف بجامع محيي الدين ابن عربي.

جامع الحاجبية — وقد زالت عينه من الصالحية ولا أثر له الآن.

جامع الخاتون — وهو الجامع الجديد.

جامع المارداني — وهو جامع المدرسة المارداني المسمى بجامع الجسر الأبيض ولا يزال حتى الوقت الحاضر هذه الجوامع موجودة عدا جامع الحاجبية فقد قلنا إنه زالت عينه وكان موضعه مقابل حمام الحاجب جنوب غربي المدرسة العمرية. ولا يوجد في المنطقة المحصورة بين جامع الحنابلة من الشرق وشارع سكة المدارس من الغرب والجسر الأبيض من الجنوب جوامع أكبر من هذه من حيث العظمة والاتساع وإن كانت المدرسة المارداني مبنية على طراز المدارس لا على طراز المساجد الجامعة الكبيرة.

خامساً : ذكر ابن كنان في معرض تفاخره بالصالحية وعمائرها ورجالها وصناعاتها وفنونها أن مسجد الخاتونية هذا كانت به مئذنة مدهونة بديعة الصناعة بحيث يعجز أرباب هذه الحرفة عن أن يصنعوا مثلها أو يحاكوها.

ونقول نحن أن هذه المئذنة لا تزال موجودة بالجامع الجديد في مواجهة المحراب وهي مدهونة بالدهانات العصمية (على حد تسمية هذه الصناعة بدمشق) وهي وان كانت قد امحت أجزاء منها وبهتت ألوانها وحالت بهجتها فلا يزال بها أثر بين عن دقة صناعة هذا الفنان الصالحي (نسبة إلى الصالحية) وتفوقه وعبقريته وليس في مساجد الخواتين جميعاً بالصالحية كلها مثل هذه المئذنة بدهاناتها وصناعتها.

(له بقية) السيد الخضر شهيب